

تفسير ابن كثير

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ
مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ^ط قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ^ج
اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ ^ق وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ
اللَّهِ ^ق ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^ق ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى ، طعاما طيبا نافعا

هنيئا سهلا واذكروا دبركم وضجركم مما رزقكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك

بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم . وقال الحسن البصري رحمه الله : فبطروا

ذلك ولم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قوما أهل أعداس وبصل

وبقل وفوم ، فقالوا : (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما

تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) [وهم يأكلون المن والسلوى ،

لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكل واحد] . فالبقول والقثاء والعدس والبصل

كلها معروفة . وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء ، وكذلك فسرهم مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم ، عنه ، بالثوم . وكذا الريع بن أنس ، وسعيد بن جبير . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن رافع ، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري ، عن يونس ، عن الحسن ، في قوله : (وفومها) قال : قال ابن عباس : الثوم . قالوا : وفي اللغة القديمة : فوموا لنا بمعنى : اختبزوا . وقال ابن جرير : فإن كان ذلك صحيحا ، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا في عاثور شر ، وعافور شر ، وأثافي وأثائي ، ومغافير ومغاثير . وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما ، والله أعلم . وقال آخرون : الفوم الحنطة ، وهو البر الذي يعمل منه الخبز . قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، أنبأنا ابن وهب قراءة ، حدثني نافع بن أبي نعيم : أن ابن عباس سئل عن قول الله : (وفومها) ما فومها ؟ قال : الحنطة . قال ابن عباس : أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول : قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا ورد المدينة عن زراعة فوموقال ابن جرير : حدثنا علي بن الحسن ، حدثنا مسلم الجرمي ، حدثنا عيسى بن يونس ، عن رشدين بن كريب ، عن أبيه ، عن

ابن عباس ، في قول الله تعالى : (وفومها) قال : الفوم الحنطة بلسان بني هاشم . وكذا قال علي بن أبي طلحة ، والضحاك وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم : الحنطة . وقال سفيان الثوري ، عن ابن جريج ، عن مجاهد وعطاء : (وفومها) قالوا وخبزها . وقال هشيم عن يونس ، عن الحسن ، وحصين ، عن أبي مالك : (وفومها) قال : الحنطة . وهو قول عكرمة ، والسدي ، والحسن البصري ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، والله أعلم . [وقال الجوهري : الفوم : الحنطة . وقال ابن دريد : الفوم : السنبل ، وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز . قال : وقال بعضهم : هو الحمص لغة شامية ، ومنه يقال لبائعه : فامي مغير عن فومي] . وقال البخاري : وقال بعضهم : الحبوب التي تؤكل كلها فوم . وقوله تعالى : (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) فيه تقرير لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنية مع ما هم فيه من العيش الرغيد ، والطعام الهنيئ الطيب النافع . وقوله : (اهبطوا مصرا) هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية ، وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك ؛ لإجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عباس : (اهبطوا

مصر) قال : مصر من الأمصار ، رواه ابن أبي حاتم ، من حديث أبي سعيد البقال
سعيد بن المرزبان ، عن عكرمة ، عنه . قال : وروي عن السدي ، وقتادة ، والريبع بن أنس
نحو ذلك . وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود : اهبطوا مصر من
غير إجراء يعني من غير صرف . ثم روى عن أبي العالية ، والريبع بن أنس أنهما فسرا ذلك
بمصر فرعون . وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية ، وعن الأعمش أيضا . وقال ابن
جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضا . ويكون ذلك من
باب الاتباع لكتابة المصحف ، كما في قوله تعالى : (قواريرا قواريرا) [الإنسان : 15 ،
16] . ثم توقف في المراد ما هو ؟ أمصر فرعون أم مصر من الأمصار ؟ وهذا الذي قاله
فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره ، والمعنى
على ذلك لأن موسى ، عليه السلام يقول لهم : هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز ، بل هو
كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه ، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن
أسأل الله فيه ، ولهذا قال : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصر فإن
لكم ما سألتكم) أي : ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة

فيه ، لم يجابوا إليه ، والله أعلم يقول تعالى : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أي :
وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرًا ، أي : لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استذلهم
وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكون . قال الضحاك
عن ابن عباس في قوله : (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) قال : هم أصحاب النيات
يعني أصحاب الجزية . وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن وقتادة ، في قوله تعالى :
(وضربت عليهم) قال : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقال الضحاك : (وضربت
عليهم الذلة) قال : الذل . وقال الحسن : أذلهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم الله تحت
أقدام المسلمين . ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية . وقال أبو العالية
والربيع بن أنس والسدي : المسكنة : الفاقة . وقال عطية العوفي : الخراج . وقال الضحاك :
الجزية . وقوله تعالى : (وباءوا بغضب من الله) قال الضحاك : استحقوا الغضب من الله ،
وقال الربيع بن أنس : فحدث عليهم غضب من الله . وقال سعيد بن جبير : (وباءوا
بغضب من الله) يقول : استوجبوا سخطا ، وقال ابن جرير : يعني بقوله : (وباءوا بغضب
من الله) انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : باءوا إلا موصولًا إما بخير وإما بشر ، يقال منه :

باء فلان بذنبه يبوء به بوءا وبواء . ومنه قوله تعالى : (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) [

المائدة : 29] يعني : تنصرف متحملهما وترجع بهما ، قد صارا عليك دوني . فمعنى

الكلام إذا : فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ،

ووجب عليهم من الله سخط . وقوله تعالى : (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون

النبیین بغير الحق) يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة ، وإحلال الغضب

بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع وهم

الأنبياء وأتباعهم ، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم ، فلا كبر أعظم من

هذا ، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ؛ ولهذا جاء في الحديث المتفق

على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكبر بطل الحق ، وغمط الناس . وقال

الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، عن ابن عون ، عن عمرو بن سعيد ، عن حميد بن عبد

الرحمن ، قال : قال ابن مسعود : كنت لا أحجب عن النجوى ، ولا عن كذا ولا عن

كذا قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده مالك بن مرارة الرهاوي ،

فأدركته من آخر حديثه ، وهو يقول : يا رسول الله ، قد قسم لي من الجمال ما ترى ،

فما أحب أن أحدا من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغي ؟ فقال :

لا ليس ذلك من البغي ، ولكن البغي من بطر - أو قال : سفه الحق - وغمط الناس . يعني :

رد الحق وانتقاص الناس ، والازدراء بهم والتعاضم عليهم . ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم ، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ،

وكساهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا . قال أبو داود الطيالسي : حدثنا

شعبة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر ، عن عبد الله بن مسعود ، قال :

كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار . وقد

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبان ، حدثنا عاصم ، عن أبي وائل ، عن

عبد الله - يعني ابن مسعود - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أشد الناس

عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي ، أو قتل نبيا ، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين . وقوله

تعالى : (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به ،

أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، فالعصيان فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون

فيه أو المأمور به . والله أعلم .